

تداعيات العقلانية في حياتنا

الأرشمندريت أناسيوس أناستاسيو، الرئيس السابق لدير الميتيورا الكبير

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

العقلانية هي الثقة المفرطة بالعقل، وترقيته إلى السلطة العليا والقيمة المطلقة. إنها طريقة خاطئة في التفكير والعيش. العقلانية هي التعبير عن الكبرياء الأكثر تميزاً ومراوغةً وهي أصل كل آثامنا. إنها تؤدي إلى تبرير الذات وفي النهاية إلى عدم التوبة. وبذلك تغلق الباب على الرحمة الإلهية. الأشخاص العقلانيون، سواء كانوا علمانيين أو كهنة أو رهبان، يصبحون مزهوين ويجلبون الموت الروحي والجحيم، ليس فقط لأنفسهم، بل أيضاً لعائلاتهم أو ديرهم أو محيطهم.

يُخضع العقلانيون الإيمان النقي الغني لعمليات فكرية بحثاً عن الحجج والبراهين. إنهم يؤمنون فقط بما يمكنهم فهمه وما يمكن أن يقبله الدماغ. العقلانيون يلقون بظلال الشك على أسرار الكنيسة المقدسة، كالاقرار والمناولة المقدسة والزواج. إنهم يختارون عقائد الإيمان ووصايا الإنجيل والعبادة والحياة الدينية وتقليد الكنيسة بما يناسبهم لأنهم غير قادرين على تصورها بعقلهم ودمغهم.

إن إشارتنا إلى الظاهرة السلبية للعقلانية وانعكاساتها على الحياة الروحية عند كل منا لا تستتبع بأي حال من الأحوال أي استهانة أو رفض للعقل نفسه، فهو أسمى عطايا الله لنا وهو الذي يميّزنا عن الحيوانات غير العاقلة وبقية المخلوقات.

يستبدل العقلانيون الإشارة إلى الله والثقة به، أي الإيمان، بالفكر والتصديق. وبهذه الطريقة يتخلّصون أساساً من الإيمان، لأن الله لم يُثبِت لنا بل أُعْلِن لنا. إنه يتجلى بطريقة صوفية إذ يُخْتَبَر في القلب بشكل عفوي وبساطة بتواضع وبدون ضجة. هذا هو السبب في أن العقلانية واقعيةً هي عدم الإيمان، وهي شكل آخر من أشكال الإلحاد، وربما أسوأ من الإلحاد المطلق التام، لأنها تجعلنا نشعر بالرضا عن النفس وتخدعنا في التفكير في أننا نؤمن، على افتراض ذلك.

تتجاوز العقلانية الحدود الضيقة للخطيئة وتعمل خلافاً لذلك وبطريقة مختلفة، مقوضة أسس الإيمان وطبيعته الأساسية. إنها تلغي العلاقات والثقة والرجاء لأنها تعتمد فقط على استنتاجاتنا المنطقية ومفاهيمنا الفردية وطريقتنا الشخصية في التفكير والعيش.

العقل) أو المنطق (هو الطاقة العملية للروح. من خلال العقل) المنطق (نفهم الطبيعة والخليقة. بالطبع، تساعدنا معرفة خليقة الله على الوصول إلى معرفة الله نفسه لكن لا يمكن للمنطق أن يقودنا إلى معرفة الله. يمكن للمنطق أن يقودنا إلى الحاجة إلى الإيمان بالله، لكن المعرفة الحقيقية عنه لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال القلب.

أكبر عائق يمنع الناس اليوم من الوصول إلى معرفة الله هو بالتحديد ما يلي: أننا نحاول أن نعرفه بطريقة خاطئة، باستخدام وسائل خاطئة. بعبارة أخرى، نضع العقل) المنطق (بدل النوس) القلب،) وهكذا ينتهي بنا المطاف بالعقلانية وعدم القدرة على معرفة الله في الحقيقة.

مما سبق، يجب أن يكون واضحًا أن التخلّي عن عقلي لا يعني أنني أصبحت غير منطقي أو سخيًا. الإيمان لا يتعارض مع العقل، بل يتخطاه. إنه لا يفهم بل يُختبر. الإيمان لا يعني الفهم بل الثقة. إنه لا يعارض الخطاب العقلاني، بل يتخطاه، يتجاوزه. إن ما فوق المنطق في الأرثوذكسية ليس إلغاءً للمنطق بل تحويله وترقيته إلى قبول خبرات الإعلان الإلهي. إن ما فوق المنطق هو استسلام ذاتنا غير المشروط، أي التخلي عن الذات، لإرادة الله ورحمته. النظرة "المنطقية" هي حصر الله وتقليصه ليناسب احتياجاتنا ومطالبنا الشخصية مع إرادتنا الأنانية. ما فوق المنطق هو أن نترك الباب إلى قلوبنا مفتوحًا ليأتي الله ويتصرّف في داخله، بطريقته الخاصة، التي ليست عقلانية أو غير منطقية أو سخيّة بل هي تتجاوز التفكير العقلاني تمامًا. إنها الحقيقة الأبدية عن الله، إنها مصدر خلاصنا ومساره. إن ما فوق المنطق هو خضوع عقلنا لعقل الله. إنه الجهد الذي نبذله لقبول منطق الله عندما لا يتوافق ذلك مع منطقتنا.

هدف المسيحيين هو السماء. وطننا هو الجنة. المسيحيون هم مواطنو السماء والهدف الأساسي من حياتنا هو معرفة الله والاتحاد به، وبعبارة أخرى إنه تحقيق القداسة. إن المطلب المطلق لمسارنا الروحي هو دائمًا التأله الذي يتحقق فقط من خلال تطهير القلب واستنارة النوس. لذا يجب أن تكون استنارة النوس هي سعينا الرئيسي، بدلاً من تنمية عقلنا. إن النوس المستنير هو الذي يقود إلى الله وليس قوى العقل المتطورة. إن النوس المستنير هو ثواب الله لنا لتنازلنا عن عقلنا له. هذا هو السبب في أن جهودنا يجب أن تستهدف تنوير النوس بدلاً من ممارسة منطقتنا.

لا تُدرّس المعرفة الروحية في الجامعات والصفوف في العالم، ولا يتم الاعتراف بها في الدبلومات وشهادات الدراسات العليا، وهي ليست موضوعًا للبحث الأكاديمي. المعرفة الروحية هي مسألة قلب، إنها نوس مستنير، إنها مشاركة في المحبة والنعمة ومجد الله. إنها إعلان عن حقيقة الله في حياتنا وفي العالم ككل. الإيمان والرجاء هما مختبر المعرفة الروحية، وكذلك الثقة بالله واستسلامنا لمحبهته اللامتناهية وعنايته. إنه التقيد والتنفيذ اليومي لوصايا الله. إنه ممارسة عمل الخير واللفظ اللطيف النشط. إنه محبة الآخرين والخير والبهجة.

بعد اجتياز جميع مراحل خطأ الكبرياء، تقودنا العقلانية في النهاية إلى تبرير الذات، لأنها تقنعنا بأننا على حق: نظرًا لأن أفكارنا وكلماتنا وأفعالنا منطقية، فيجب أن تكون أيضًا صائبة وعادلة. لذلك، نحن على حق، وبالتالي نحن مبررون في فرض رؤيتنا الخاصة على أنها معرفة فعلية ومرغوبة وصالحة كطريقة للسلوك. عندما نبدأ بالقيام بذلك، نكون على منحدر زلق نحو تبريرنا الذاتي الذي لا يمكن تحقيقه) لأنه لا يشبع (، والذي يغيرنا بسلسلة من الخطايا أكبر وأكثر صعوبة.

Αρχιμ. Αθανάσιος Αναστασίου. Οι συνέπειες του ορθολογισμού στη ζωή μας. Η ΑΛΛΗ ΟΨΙΣ. 29 Μαΐου, 2012. <https://alopsis.gr/οι-συνέπειες-του-ορθολογισμού-στη-ζωή/>